خَاتِمَة

لقد أدى أعلام العلمـاء واجبهم فى تقدير الفضـيل ـ رحمه الله ـ وفيما يلى بعضٌ من كثير:

يذكر صاحب «الجواهر المضيئة» [1]:

«الفُضَيل بن عـيَاض بن مَسْعود بن بِشْـر، أبو علىٍّ: الإمَام الربَّانىُّ التميمىُّ اليربوعىُّ الزاهد، أحد صُلَحاء الدنيا وعُبَّادها».

وذكر الصيمرى أنه أحد مَنْ أخذ الفقهَ عن أبى حنيفة، ورَوى عنه الإمام الشافعىُّ، فأخـذَ عن إمامٍ عظيمٍ، وأخذَ عنـه إمامٌ عظيمٌ، وهو إمامٌ عظيمٌ، نَفعنَا اللهُ بهم.. آمين.

وروى له إمامان عظيمان: **البخارى، ومسلم.**

وروى أبو وهب محمد بن مزاحم عن ابن المبارك:

« وأمَّا أوْرَعُ النَّاسِ ففُضَيلُ بنُ عِيَاض ».

وقال الهيثم بن جميل، عن شريك:

« لَمْ يزلْ لكلِّ قومٍ حُجَّةٌ فى زَمَانِهم، وإنَّ فُضَيلَ بنَ عيـاضٍ حُجَّةٌ لأهْلِ زمانه ».

وقال بشر بن الحارث:

« عشرةٌ كانوا يأكلونَ الحَلالَ، لا يدخلُ بطونَهم غيرُه، ولو استَفّوا التُّرابَ، فذَكَرهُ فِيهم ».

---

(١) جـ١ ص ٤٠٩.

ويقول صاحب « الكواكب الدرية » عنه:

« التَّميمىُّ، الخُراسَانىُّ، شَيخُ الحَرَم ، وكان إمَامًا ربَّانيّاً صَمَدَانياً قَانتًا زَاهِداً عَابِدًا، عَظِيمَ الشَّأنِ، شَدِيدَ الخَوْفِ، دائمَ الفِكْرِ ».

ويقول عنه ابن سعد:

« كان نَبِيلاً، فَاضِلاً، عَابِدًا، وَرِعًا »

أما صاحب «ميزان الاعتدال»[1] فإنه يقول عنه:

« فُضَيل بنُ عِيَاض الزَّاهد، شيخُ الحَرَم، وأحدُ الأثْبَاتِ، مُجْمَعٌ على ثِقَتِه وجَلالتِه، فالفُضَيل مِنْ مشَايخِ الإسلام ».

وقال الذهبى وغيره:

« كان سَيِّداً، عَابِدًا، وَرِعاً، زَاهِدًا ، إمَاماً ربَّانيّاً، عَالماً فَقِيهاً، ونَاهيكَ بمنْ يقولُ ابنُ المبَارَكِ رضي الله عنه فيه: ما بَقِىَ علَى ظَهْرِ الأَرْضِ أفْضَلُ مِنْهُ ».

ويقول عنه صاحب «تقريب التهذيب» [2] :

« فُضَيل بنُ عِيَاضِ بنُ مَسْعود التَّميمىُّ، أبو علىٍّ، الزَّاهدُ، المَشْهُورُ، أصْلُه مِنْ خُرَاسَان، وسكنَ مكَّةَ ، ثقةٌ عابدٌ إمامٌ، ماتَ سنةَ سبعٍ وثمانينَ ومائةٍ ».

---

(١) ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبى جـ ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) تقريب التهذيب جـ ٢ ص ١١٣ .

ويقول عنه ابن كثير فى «البداية والنهاية»:

« وُلِدَ بخُراسَان، بكُورة دينُور، وقَدِمَ الكوفةَ وهو كبيرٌ، فسَمِعَ بهَا الأعمشَ ومَنصورَ بن المعتمر ، وعطاءَ بن السَّائب، وحُصين بن عبد الرحمن، وغيرَهم، ثم انتقلَ إلى مكَّة فَتَعَبَّدَ بهَا، وكانَ حَسَنَ التِّلاوةِ ، كثيرَ الصَّلاةِ والصِّيامِ ، وكانَ سَيِّداً جَلِيلاً ثقةً مِنْ أئمَّةِ الرِّوايةِ »[1].

***

والذى نحب أن نقوله ـ بعد هذا ـ هو أن حياة الفضيل إنما هى شعاع من نور يبدد الكثير من الشبهات الزائفة التى انتثرت هنا وهناك حول التصوف الإسلامى.

لقد كان الفضيل من أوائل الصوفية، لقد عاش فى القرن الثانى الهجرى، وكان عربيًا من قبيلة تميم، وكان عالماً من كبار علماء المسلمين، وكان يعيش من كسب يده.

إن حياته تكذِّب هؤلاء الذى يحاولون ـ فى تَعسُّفٍ وفى زيفٍ ـ أن يجعلوا مصدر التصوف يونانياً:

أفلاطونية **أفلاطون**، أو أفلاطونية **أفلوطين**. .لم تكن هذه أو تلك قد ظهرت فى العصر الذى عاش فيه، ولم يعرف الفضيل هذه

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٨ .

أو تلك، ولم يكن يدور بخلده أن يستمد التوجيه من **أفلاطون** أو **أفلوطين** .

وحياة الفضيل تكذِّب هؤلاء الذين يقولون: إن مصدرَ التصوف المسيحيةُ، فقد كان الفضيل غارقاً فى التراث الإسلامى، فى ميراث محمد ﷺ، فى الحديث، وفى القرآن، وفى آثار الرسول ﷺ، وفى الوحى، ولم يكن بين جنبيه من المسيحية إلا ما ذكره القرآن عنها، أو ما ذكره الرسول ﷺ، مُفسِّرًا للقرآن، ومُبيِّنًا له، وكان يقرأ ـ فيما يقرأ ـ:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

وكان يقرأ:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

---

(١) سورة المائدة : ٧٣.

وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وكان يقرأ عن ضلال أهل الكتاب وانحرافهم الشيء الكثير.. كان يقرأ:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾(٢).

وكان يقرأ هذا النداء الحق الربانى الإلهى الذى لم يَستَجِبْ له اليهود ولا النصارى، وهو حق واضح:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٣).

إن المسلمين كانوا يرون، فى عهد الفضيل ـ من خلال القرآن ـ هذا الضلال الذى انغمس فيه أهل الكتاب، ويرون أنهم أخطأوا الحق وأنه ما دام الأساس الذى تقوم المسيحية عليه ـ إذ ذاك ـ باطلاً، فإن

---

(١) سورة المائدة : ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) سورة التوبة : ٣٠.

(٣) سورة آل عمران : ٦٤.

كل ما يبنى عليه فهو باطل مثله، ولا يتأتى ـ إذن ـ أن يكون القرب من الله ـ وهو التصوف ـ قائماً على أساس باطل. والغريب أنه مع وضوح موقف المسلمين العام من المسيحية وأنها باطلة ، وأن الله يعبِّر عن بطلانها بأساليب فى غاية القوة، منها قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[1].

ورغم هذا فإنهم لا يتورَّعون عن اتهام الصوفية بالأخذ عن المسيحية.

إن الصوفية ما كانوا يستمدون حياتهم ـ لا، ولا قلامة ظفر ـ من باطل؛ لأنهم على يقين من أنه لا يمكن الوصول إلى الله إلا عن طريق الحق.

وحياة الفضيل تكذِّب هؤلاء الذين يقولون: إن نشأة التصوف إنما هى نشأة فارسية، وإن التصوف لا يتناسب مع الفطرة العربية، والذى يقول ذلك هم المستشرقون.

---

(١) سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥.

لقد كان الفضيل عربياً خالصًا وكان من أئمة الصوفية.

وحياة الفضيل تكذِّب هؤلاء الذين يريدون أن يقرنوا بين التصوف والجهل ، فقد كان الفضيل قمة فى العلم.

وهى تكذِّب أيضاً هؤلاء الذين يزعمون أن بين التصوف والشريعة سُوءَ تَفَاهُم، بل إن حياة الفضيل هى عبارة عن سلوك ملتزم للشريعة، وقد بيَّنا ذلك من قبل.. إن حياته إنما هى تحقيقٌ لقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

وهى تحقيقٌ واتِّباعٌ لقوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2] .

رحمه الله رحمة واسعة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، فى البداية والنهاية، وفى كل نَفَسٍ ولمحةٍ إلى يوم الدين.

***

(١) سورة آل عمران : ١٠١.

(٢) سورة الأحزاب : ٢١.

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح البخارى.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ المستدرك للحاكم النيسابورى.

٥ ـ صحيح ابن حبَّان.

٦ ـ صحيح ابن خزيمة.

٧ ـ سنن ابن ماجه.

٨ ـ سنن الترمذى.

٩ ـ سنن الدارقطنى.

١٠ ـ سنن النسائى.

١١ ـ السنن الكبرى للبيهقى.

١٢ ـ مسند البزار .

١٣ ـ البداية والنهاية لابن كثير.

١٤ ـ صفة الصفوة لابن الجوزى.

١٥ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد.

١٦ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم.

١٧ ـ ميزان الاعتدال ونقد الرجال للذهبى.

١٨ ـ تهذيب الأسماء واللغات للنووى.
١٩ ـ تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى.
٢٠ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى.
٢١ ـ الجواهر المضيئة لعبد القادر القرشى .
٢٢ ـ الطبقات للإمام الشعرانى.
٢٣ ـ الكواكب الدرية للمناوى.

***